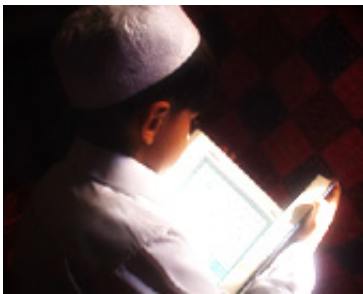


حديث : احفظ الله يحفظك

08:18:51 2005-11-14 | الشبكة الإسلامية



متن الحديث

عن أبي العباس عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما ، فقال : (يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية الإمام أحمد : (احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا) .

الشرح

اصطفى الله تعالى هذه الأمة من بين سائر الأمم ، ليكتب لها التمكين في الأرض ، وهذا المستوى الرفيع لا يتحقق إلا بوجود تربية إيمانية جادة تؤهلها لمواجهة الصعوبات التي قد تعترضها ، والأعاصير التي قد تحيق بها ، في سبيل نشر هذا الدين ، وإقامة شرع الله في الأرض .

ومن هذا المنطلق حرص النبي صلى الله عليه وسلم على غرس العقيدة في النفوس المؤمنة ، وأولى اهتماما خاصا للشباب ، ولا عجب في ذلك! فهم اللبنة القوية والسواعد الفتية التي يعول عليها نصره هذا الدين ، وتحمل أعباء الدعوة .

وفي الحديث الذي نتناوله ، مثال حي على هذه التنشئة الإسلامية الفريدة ، للأجيال المؤمنة في عهد النبوة ، بما يحتويه هذا المثال على وصايا عظيمة ، وقواعد مهمة ، لا غنى للمسلم عنها .

وأولى الوصايا التي احتواها هذا الحديث ، قوله صلى الله عليه وسلم : (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك) ، إنها وصية جامعة ترشد المؤمن بأن يراعي حقوق الله تعالى ، ويلتزم بأوامره ، ويقف عند حدود الشرع فلا يتعداه ، ويمنع جوارحه من استخدامها في غير ما خلقت له ، فإذا قام بذلك كان الجزاء من جنس العمل ، مصداقا لما أخبرنا الله تعالى في كتابه حيث قال : { وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم } (البقرة : 40) ، وقال أيضا : { فاذكروني أذكركم } (البقرة : 152) .

وهذا الحفظ الذي وعد الله به من اتقاه يقع على نوعين :

الأول : حفظ الله سبحانه وتعالى لعبده في دنياه ، فيحفظه في بدنه وماله وأهله ، ويوكل له من الملائكة من يتولون حفظه ورعايته ، كما قال تعالى : **{ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله }** (الرعد : 11) أي : بأمره ، وهو عين ما كان يدعو به النبي صلى الله عليه وسلم كل صباح ومساء : **(اللهم إني أسألك العفو والعافية ، في ديني ودنياي وآخرتي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وأمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)** رواه أبو داود و ابن ماجه ، وبهذا الحفظ أنقذ الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام من النار ، وأخرج يوسف عليه السلام من الجب ، وحمي موسى عليه السلام من الغرق وهو رضيع ، وتتسع حدود هذا الحفظ لتشمل حفظ المرء في ذريته بعد موته ، كما قال سعيد بن المسيب لولده : " لأزیدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك " ، وتلا قوله تعالى : **{ وكان أبوهما صالحا }** (الكهف : 82) .

الثاني : حفظ الله للعبد في دينه ، فيحميه من مضلات الفتن ، وأمواج الشهوات ، ولعل خير ما نستحضره في هذا المقام : حفظ الله تعالى لدين يوسف عليه السلام ، على الرغم من الفتنة العظيمة التي أحاطت به وكادت له ، يقول الله تعالى في ذلك : **{ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين }** (يوسف : 24) ، وتستمر هذه الرعاية للعبد حتى يلقي ربه مؤمنا موحدا .

ولكن الفوز بهذا الموعد العظيم يتطلب من المسلم إقبالا حقيقيا على الدين ، واجتهادا في التقرب إلى الله عزوجل ، ودوام الاتصال به في الخلوات ، وهذا هو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم في الرواية الثانية لهذا الحديث : **(تعرّف إلى الله في الرخاء ، يعرفك في الشدة)** ، فمن اتقى ربه حال الرخاء ، وقاه الله حال الشدة والبلاء .

ثم انتقل الحديث إلى جانب مهم من جوانب العقيدة ، ويتمثل ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم **لابن عباس : (إذا سألت فاسأل الله)** ، وسؤال الله تعالى والتوجه إليه بالدعاء من أبرز مظاهر العبودية والافتقار إليه ، بل هو العبادة كلها كما جاء في الحديث : **(الدعاء هو العبادة)** ، وقد أثنى الله على عباده المؤمنين في كتابه العزيز فقال : **{ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين }** (الأنبياء : 90) .

وإن من تمام هذه العبادة ترك سؤال الناس ، فإن في سؤالهم تذلل لهم ومهانة للنفس ، ولا يسلم سؤالهم من منة أو جرح للمشاعر ، أو نيل من الكرامة ، كما قال طاووس لعطاء رحمهما الله : " إياك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل دونك حجابيه ، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة ، أمرك أن تسأله ، ووعدك أن يجيبك " ، وصدق أبو العتاهية إذ قال :

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تُحجب

فاجعل سؤالك للاله فإنما في فضل نعمة ربنا تتقلب

وقد أثنى الله على عباده المتعففين فقال : **{ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا }** (البقرة : 273) ، وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم رهطا من أصحابه على ترك سؤال الناس ، وكان منهم أبوبكر الصديق و أبو ذر الغفاري و ثوبان رضي الله عنهم أجمعين ، فامتثلوا لذلك جميعا ، حتى إن أحدهم إذا سقط منه سوطه أو خطام ناقته لا يسأل أحدا أن يأتي به .

إن ما سبق ذكره من الثناء على المتعففين إنما هو متوجه لمن تعفف عن سؤال الناس فيما يقدرون عليه ، وما يملكون فعله ، أما ما يفعله بعض الجهلة من اللجوء إلى الأولياء والصالحين الأحياء منهم أو الأموات ، ليسألونهم ويطلبون منهم أعمالاً خارجة عن نطاق قدرتهم ، فهذا صرفاً للعبادة لغير الله عزوجل ، وبالتالي فهو داخل تحت طائلة الشرك .

وفي قوله : **(وإذا استعنت فاستعن بالله)** أمر بطلب العون من الله تعالى دون غيره ، لأن العبد من شأنه الحاجة إلى من يعينه في أمور معاشه ومعاده ، ومصالح دنياه وآخرتيه ، وليس يقدر على ذلك إلا الحي القيوم ، الذي بيده خزائن السموات والأرض ، فمن أعانه الله فلا خذل له ، ومن خذله الله فلن تجد له معينا ونصيرا ، قال تعالى : **{ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده }** (آل عمران : 160) ، ولهذا المعنى كان النبي

صلى الله عليه وسلم يكثر من قول : **(اللهم أعني ولا تعن علي)** ، وأمر **معاذ** رضي الله عنه ، ألا يدع في دبر كل صلاة أن يقول **(اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)** رواه **النسائي وأبو داود** .

وإذا قويت استعانة العبد بربه ، فإن من شأنها أن تعمق إيمانه بقضاء الله وقدره ، والاعتماد عليه في كل شؤونه وأحواله ، وعندها لا يبالي بما يكيد له أعداؤه ، ويوقن أن الخلق كلهم لن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له ، ولن يستطيعوا أن يضروه بشيء لم يقدر عليه ، ولم يكتب في علم الله ، كما قال سبحانه : **{ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير } (الحديد : 22)** .

ولما وعى سلفنا الصالح هذه الوصية ، أورثهم ذلك ثباتا في العزيمة ، وتفانيا في نشر هذا الدين ، غير مباليين بالصعوبات التي تواجههم ، والآلام التي تعترهم ، لأنهم علموا أن طريق التمكين إنما يكون بالعمل بهذه الوصية النبوية ، وأن الفرج يأتي من بعد الكرب ، وأن العسر يعقبه اليسر ، وهذا هو الطريق الذي سلكه أنبياء الله جميعا عليهم السلام ، فما كتب النصر ل **نوح** عليه السلام ، إلا بعد سلسلة طويلة من الجهاد مع قومه ، والصبر على أذاهم ، وما أنجى الله نبيه **يونس** عليه السلام من بطن الحوت ، إلا بعد معاناة طويلة عاشها مستغفرا لربه راجيا فرجه ، معتمدا عليه في كل شؤونه ، حتى انكشفت غمته ، وأنقذه من بلانه ومحتته ، وهكذا يكون النصر مرهونا بالصبر على البلاء والامتحان .

إننا نستوحي من هذا الحديث معالم مهمة ، ووصايا عظيمة ، من عمل بها ، كتبت له النجاة ، واستتارت له عتبات الطريق ، فما أحوجنا إلى أن نتبصر كلام نبينا صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته ، ونستلهم منها الحلول الناجعة لمشكلات الحياة ، ونجعلها السبيل الأوحد للنهضة بالأمة نحو واجباتها .